زكي الارسوزي وجهوده اللغوية، وتأثيرها على بناء الهوية العربية

د.علاء عبد الرزاق

يعد زكي الارسوزي واحداً من المفكرين القوميين العرب القلائل الذين عنوا بشكل كبير باللغة العربية وجذور مفرداتها، ولقد انصبت جهوده الفكرية في تبيان اهمية اللغة العربية في احياء الحضارة العربية والنهضة العربية الشاملة، لقد أمن بان اللغة هي سر عبقرية الأمة، لذلك وضع ثلاثة كتب في اللغة العربية هي: «العبقرية العربية في لسانها» (١٩٤٣)، «رسالة اللغة» (١٩٥٢)، «اللسان العربي» (١٩٦٣). ويرى بعض النقاد والمفكرين أن الكتاب الأول هو الأساس في كل ما كتبه، ليس عن اللغة فحسب، بل عن القومية والفن والأخلاق والسياسة أيضاً.

ولقد اعطى الارسوزي للغة العربية صفات كانت بمثابة نهج اصيل لديه فعد اللغة العربية لغة رحمانية وهي مستوحاة من الحياة وان جذرها الارض العربية ولم تكن مفرداتها الاصلية دخيلة أو مشتقة من لغة اخرى، (لقد اقتبست من الحياة عناصر بنيتها فقد دلت بهذا الاقتباس على نفوذها فيه وبدء سيطرتها عليه، وهي قد حققت بالإنسان صبوتها فخلقت من بدنه قدراً طوع ارادتها، به تحرر معناها، فأصبحت صورة لمبدعها.)

ان الفرضية التي يستند عليها البحث تقوم على ان المساهمة التي قدمها الارسوزي على صعيد البحث اللغوي قد مثلت مساهمة اصيلة في هذا الميدان وساهمت بشكل كبير في تعزيز مفهوم الهوية العربية كونها متفردة واصيلة، وان الازمات التي لحقت بالعرب سواء أكانت سياسية او اخلاقية او اقتصادية انما كان نتيجة لضياع موروثهم اللغوي أو اهماله وبالتالي اثر ذلك بشكل كبير على هويتهم والتي تعرضت هي الاخرى للتهميش والضياع.

ينقسم البحث لمبحثين يتناول الاول منهما النشأة الفكرية لزكي الارسوزي وتأثره بالمدرسة الالمانية والتي اكدت على اهمية اللغة في بناء الامة، واما المبحث الثاني فيتناول الاسهام الذي قدمه الارسوزي على صعيد تأصيل الجذر اللغوي للغة العربية والكيفية التي يمكن ان يساهم هذا الموروث اللغوي في ترصين مقومات الهوية العربية.

المبحث الاول: النشأة الفكرية والدور السياسي

تقتضي الضرورات الخاصة بالبحث من الناحية المنهجية تناول النشأة الفكرية والنشاط السياسي الذي مارسه زكي الارسوزي والذي كان منصباً على ايقاظ العرب وضرورة ايمانهم بوحدتهم القومية وبكيانهم و وجودهم كقوم مغايرين لأي امة من الامم بفضل ما تمتلكه لغتهم العربية من مزايا وخصائص تختلف عن أي لغة حية أخرى.

هو زكي بن نجيب بن ابراهيم الارسوزي نسبة إلى قرية ارسوز والتي نُسب اليها جده ابراهيم، ولد في مدينة اللاذقية في حزيران من العام ١٩٠٠ لابٍ محام وام تنتمي لأسرةٍ شهيرة بالتقوى والورع في ارسوز وهي كريمة الشيخ صالح العليا أحد مشايخ العلويين، ثم انتقل زكي إلى انطاكية حيث كان والده يمارس المحاماة ولقد نمت لديه منذ نعومة اضفاره ميول قومية و وطنية الامر الذي اثار السلطات التركية فقررت نفيه وعائلته إلى انقرة، وهناك تعلم اللغة التركية واجادها.١

دخل الارسوزي الحياة المهنية وذلك عندما عمل مدرساً للرياضيات في ثانوية انطاكية في العام ١٩٢٠-١٩٢١ثم مديراً لناحية ارسوز في العام ١٩٢٤-١٩٢٥، وكان شاعراً بالضيم الذي يقع على عاتق الفلاحين والعمال والحرفيين، ولم يكن ليبتعد عن مقابلة الفقراء والمعوزين في دائرته، و وقف اكثر من مرة بوجه سلطات الانتداب الامر الذي دعاها إلى نقله لدائرة المعارف بوظيفة امين سر فشغلها

لعامين (١٩٢٦-١٩٢٧) ولما كان العمل قليلاً في هذه الوظيفة فلقد انشغل بقراءة الكتب الفلسفية والادبية والتاريخية، وكانت الرياضيات والفلسفة المنبثقة من التخصصات التي تشغل لبه ايضاً، ولقد بقي زكي الارسوزي منتقداً وناقماً على سلطات الانتداب فأبعد مرة اخرى وهذه المرة إلى فرنسا وبعد عودته أصبح مدرساً للتاريخ. ولقد أبى على نفسه أن يقوم بالتدريس في صفوف ينفصل طلابها على أسس مذهبية وبالتالي سعى إلى جمع هؤلاء الطلاب في صف واحد، وهو ما ناقض السياسات الانتدابية والتي كانت تتبعها فرنسا ولاسيما في مجال بث الفرقة بين ابناء المجتمع السوري إذ امن الارسوزي بأن الطائفية والعرقية انحرافات انسانية يجب أن تزول، فالعلم لا يعرف هذه الفروق العنصرية والدينية والتي ما أنزل الله بها من سلطان، فالحقيقة للجميع.٢

عانى الارسوزي من سياسات النفي والابعاد المتكرر ومن ثم الفصل ولقد زادته هذه السياسات تمسكاً بمبادئه وبحقوق شعبه وبالوقوف إلى جانب الفقراء والمحتاجين والمعوزين، ولقد اضطرت الظروف السياسية التي مر بها لواء الاسكندرون، ولا سيما سلخه عن سوريا إلى تركه اللواء وقدومه إلى حلب في العام ١٩٣٨، ولقد عد تركه للواء نزوحاً لا هجرة وزاده وتلامذته إصراراً على التمسك بالمبادئ الخاصة بتحقيق استقلال البلدان العربية، وبناء مجتمع تقدمي فيها، ولقد انتقل الارسوزي خلال عام واحد بين حلب وحمص وحماة ومن ثم استقر في دمشق ثم بغداد وعاد منها هي الاخرى منفياً إذ كانت توصد الابواب امامه كتدريسي إلا انه كان يحظى بشعبية واسعة بين الطلبة والطبقات الفقيرة والكادحة، وفي دمشق عاش مع طلبته من ابناء اللواء حياة ضنك وعوز وفاقة، وكان مثالاً للصبر والتضحية وعزة النفس والاباء والشمم، بحسب ما أجمع عليه كل تلامذته ومريدوه.٣

واما بعد الاستقلال فقد حصل الارسوزي على وظيفة مدرس في ثانوية حماة، ثم أصبح مدرساً للفلسفة في حلب، وفي العام ١٩٥٣ عاد لدمشق ليدرس الفلسفة حتى العام ١٩٥٩ إذ احيل بعدها على التقاعد.

واما الفكر السياسي الذي طرحه الارسوزي فقد كان مستنداً على احياء القيم العربية والهوية العربية وبناء مجتمع عربي تقدمي يتوائم مع العصر الذي يعيشه العرب، ولا ننسى انه عاش في ظل ظروف بالغة الدقة والحساسية إذ كانت تلك المرحلة مرحلة انهيار الدولة العثمانية وبداية شعور العرب بهويتهم مع وضوح المطامع الغربية في اقتسام التركة العثمانية، ولقد شعر العرب والنخب المثقفة منهم بان المرحلة مناسبة لاستعادة استقلالهم وتحقيق وحدتهم وفي ظل المطامع والتنافس بين الدولة المنتدبة فرنسا من جهة وتركيا والتي كانت تسعى للحصول على اجزاء من سوريا والعراق من جهة اخرى؛ نشأ ونما الشعور القومي لدى زكي الارسوزي والذي دعاه فيما بعد إلى الايمان بان احياء الهوية العربية مرتبط بتحرر العرب و وحدتهم، وهذا الشرطان يرتبطان بقيام تدريس ونظام تربوي وتعليمي سليم وعلى هذا الاساس فقد عمل على تأسيس اندية ونشاطات مرتبطة بهذه الاندية تدعو إلى الايمان بالهوية القومية العربية كهوية جامعة ومن هذه الاندية نادي العروبة في لواء الاسكندرون والذي انتسب اليهم الطلاب وشاركهم فيه العمال والفلاحين، وعلى الرغم من انه امن بان الانخراط في العمل السياسي ضرورة لتوعية الجمهور العربي بحقيقة هويته ومكانتها ضرورة لتوعية الجمهور العربي بحقيقة هويته ومكانتها وضرورة تحديد واحياء المشاعر القومية العربية وايمان العرب بانهم امة واحدة إلا انه أدرك بان مثل هذا الاحياء بحاجة ماسة لجهد فكري، فسعى إلى دراسة معاجم اللغة، يتأمل في ترتيب المعجم العربي، لتبدو له العروبة بمختلف ابعادها كامنة بين المفردات كالروح في الجسد، فوضع كتابه الاول: العبقرية العربية في لسانها والذي يلخص فلسفته ثم تابع مؤلفاته فأصدر معنى العروبة والاخلاق والفلسفة في العام ١٩٤٨ ورسالة عن الفن في العام ١٩٥٣، ورسالة عن الفلسفة في العام ١٩٥٤، وبعث الامة ورسالتها إلى العالم في العام ١٩٦٣.

لقد ادرك الارسوزي ان للغة وظيفة أساسية ومتميزة الا وهي الهوية فبالإضافة إلى وظيفة التواصل مع الغير وتمثل الكون لذات الانسان في عقله وتعلم تصنيف الاشياء باستخدام الكلمات التي توفرها اللغة، تأتي الهوية والتي تدلُ على التمثل الذاتي لهوية شخصٍ ما وهي بمثابة المركز المُنظم والمُشكل لتمثلاته للعالم.٤

كان المحرك الاساسي للارسوزي هو إن العرب قد بلغوا قمة الحضارة وعزة المدنية وعظمة الرسالة الروحية عبر التاريخ ثم انحدرت الحضارة العربية إلى مستويات متدنية من التخلف والتأخر

والجهالة، وامن بان العرب في سالف العصور قد حققوا ذاتهم وأمنوا بهذه الذات وكانت اللغة العربية هي الاداة الاساسية للتعبير عن هذه الذات، كما أدرك الارسوزي ان العربي يعيش حالة من القلق والاضطراب بين ما يمكن أن يستلهمه من الماضي وما الذي يمكن أن يتركه وهل يتطلع الى الاخر فيأخذ منه ويتأثر به بشكل كامل أو ينكفأ على ذاته فيخلق جديداً ويبدع فيه.

ولقد رد الارسوزي على مثل هذه التساؤلات بان هنالك ضرورة لان يكون العربي عربياً ومعاصراً في الوقت ذاته بمعنى الحفاظ على الهوية العربية ومقوماتها لا سيما اللغة العربية والانفتاح على التيارات المعاصرة بنحو لا يسلب قدرة العربي على الفعل.

لقد قدم الارسوزي ما يشبه المعادلة الروحية لارتباط الهوية العربية بجانب الهي متسام إذ قال بان :" المعنى(الاله) يتجلى في الحياة، وان الحياة تتجلى في الامة وان الامة تتجلى في العبقرية والعبقرية تتجلى في لسانها ولغتها. ودراسة اللغة العربية بنظر الارسوزي تبعث عبقرية الامة، وان بعث الامة يبعث الحياة وهو ارتقاء في المعنى والمعنى قادر على كل شيء.٥ لقد امن الارسوزي بفلسفة فنية رحمانية تسندها منظومة المعارف العلمية المعاصرة وان كلمة فقه اتخذها الاجداد بمثابة مفتاح مقام للفلسفة وهي تعني تفتح النفس عن بنيانها، مُستضيئة بنور ذاتها، تفتحاً يتخطى به الذهن حدود الثنائية متعالياً نحو وحدانية تحوي في عليائها درجات الصعود المؤدية اليها.٦

لقد امن الارسوزي بان كلمتي الامة والقومية كلمتين غير مترادفتين وان بدتا كذلك إذ ان كلا منهما تعطي معنى مختلفاً عن الاخر فكلمة امة مشتقة من الام من مصدر واحد والام هي الصورة الحية للامة ومثل الامة من أعضاء المجتمع كمثل الام في ابنائها، والامة تعني فضلاً عن ذلك، مصدر الاعراف والمؤسسات العامة أي مصدر اللغة والآداب والفنون وما هنالك من مظاهر للحياة العامة واما القومية فهي رابطة بين ذوي القربى تظهر مؤازرة بين بعضهم البعض، وبنو قوم الانسان هم اولئك الذين ينجدونه فيهبون للذود عنه.٧

والامة العربية عند الارسوزي امة اصل وهي ينبوع الشعوب السامية كافة، عالم بذاته لم يأفل ولقد كان لتفسيره لنشوء وتكون الامة العربية قد مهد لإيمانه بدور اللغة في بناء الامة وفي تعبيرها عن مكنونات وجودها.

والاختلاف بين الامة العربية وسواها يبدو خصوصاً على المفاهيم الانسانية الاصيلة، فاللسان العربي هو بدء وذو بنيان اشتقاقي يشير بكلماته إلى اتجاهات حدس العرب ويكشف بهذه الاشارة عن وجهة الامة العربية فيها.٨

لقد كرس الارسوزي جهده الفكري لإثبات الدور الذي قام به اللسان العربي في حفظ الهوية العربية وبدايات تكون وتكامل هذا اللسان لديه كانت هي في العصر الذي سبق الاسلام والذي عده بمثابة العصر الذهبي للعروبة، تجلى فيه أسمى ما لدى العرب من نسب وخصائص وخصال عربية، وتجسدت فيه عبقرية الامة العربية عن طريق اللغة والشعر والنزعة الفنية والبطولة والتدفق والحيوية والفضائل الخلقية كما كانت هذه الحقبة بمثابة المهد الذي استكملت فيه الامة شروط كيانها، بانسجام قطبيها الطبيعية والانسانية وهي عهد الفطرة، العهد الذي نشأ فيه كيان العرب الانساني بشكلٍ عفوي، فجاءت مؤسسات العرب القومية متلازمة متتامة، فهي بالنسبة للعربي عهد الذهبي والذي كان يجود فيه بدمه ليحقق انسانيته وكان حرصه على الحياة والثروة، وسيلة ليكشف بواسطتها عن كريم خصاله، وفيه استكمل الاجداد شروط الشعر والبطولة، وقامت الحياة على نظرة فنية(الحياة للحياة) فقد كان الباعث على العمل جماله لا نتيجته.٩

كما عد الارسوزي الحقبة التاريخية التي سبقت الاسلام بمثابة الموسم من البذرة كما ان التراث الفكري الذي ترادف مع هذه المرحلة هو المظهر الذي تجلت فيه عبقرية الامة وتجلت عبقريتها هذه في لسانها، وأورثت هذه الميزة للأجيال التالية فقد كانت الحياة الادبية والاجتماعية العربية استجلاء للمعاني المتضمنة في الكلمات العربية والتي بدورها ترجع إلى اصوات طبيعية، وكانت الكلمة العربية تعبير عن تجلي بنيان الامة في برهة من تطورها، وما اللسان العربي إلا منظومة صوتية تتجاوب بها هذه التجليات، وهو يعكس صورتها ويتبع مصيرها ولما كانت الامة قد أنشأت كيانها في عهدها البدائي أو الجاهلي بغريزتها، تحقيقاً لذاتها، فقد كانت هذه المؤسسات متلازمة ومتتامة إذ انها تعبير عن وحدة سماوية تتدفق منها الحياة فتزهو بها تجلياتها، وكان شعار العربي في هذا العهد هو البطولة والتي تحقق بها الحياة غايتها والذي كان يكسو

روعتها بالصور الشعرية اللائقة بها.١٠

كما بين الارسوزي طبيعة الاختلاف بين الامم السامية والامم الارية أو الهندو اوربية فيرى إن نبرة الايقاع عند العرب وما تفرع عنهم من شعوب سامية كان اتخاذ الثقافة كعامل اولي في تكوين الانسان، أي انه اتخاذ ما ينبثق من النفس من تجليات للحقيقة الانسانية، وهو العامل الاساس في تعيين مجرى حوادث الانسان، على العكس من الاريين فنبرة الايقاع لديهم كانت للروابط التي تحصل في ضرورات البيئة، والبنى الروحية والوجدانية العربية قبل الاسلام مهدت الظهور للإسلام لان يشرف من عل كرسالة على الامم، ويوجهها نحو وحدة الثقافة :" إن الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين اوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم"" قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً فقولوا أشهدوا باننا مسلمون" وقوله تعالى:" وما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين"١١

وبالإسلام نشأ مبدأ الاسرة الانسانية :" كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه إلا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم."١٢

والعرب في الاسرة الانسانية بمثابة الابن البكر امة وسط بمعنى الاعتدال والقرب من الينبوع من الكمال والذي هو المثال الاعلى المتجلي في الرسالة حيناً بعد أخر من عهد ادم عليه السلام حتى محمد صلى الله عليه واله وسلم(أول خلق الله وأخر الرسل)،" لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً"١٣

ولقد اتخذ العرب الاصالة أساساً من الكفاءة وأن الارض وما ينجم عنها من مصالح تستجليان مفهوم العدالة وتساعدان على نمو الروابط بين الناس وتنوعها وكل امة تسلك طريق عبقريتها الخاصة والحياة تظهر كمنظومة في الاحياء على تفاوت درجات انواعها وعلى اختلاف مراتب مؤسساتها العامة وبشمول طابعها وهذا هو حال الامة العربية وهو ما يبرز الفارق بين عبقرية العرب وعبقرية غيرهم فمن حيث الكلمة العربية تبدأ بالأصوات الطبيعية فمن صوت خرير الماء مثلاً خر خريراً اشتقت كلمة (خَر) و(خرج)،و(خرق) فالعلاقة بين المعنى واللفظ تقوم على اقتران الشيء بالشيء وإلى صوت الالم(الاخ) عبارة التوجع الطبيعية اشتقت كلمة الاخ والاخوة والاخاء، ولا يستثنى من هذه القاعدة كلمة واحدة في اللسان العربي، واذا ما قورنت الكلمات العربية مع كلمات لغة أخرى كالفرنسية مثلاً تبين الاختلاف بين العرب وغيرهم فالكلمات الفرنسية قد ولدت من تحوير كلمات لاتينية والاخيرة حورت من لغات هندو اوربية وهكذا تبقى اللغات الاخرى طافية في التاريخ ليس لها جذور في الطبيعة.١٤

لقد تطور اللسان العربي بحسب الارسوزي نحو بنيان عضوي استكملت فيه الكلمة شروط كيانها بالتعبير عن انسانية متسامية، بينما تطورت اللغات الاوربية نحو بنيان ميكانيكي تتحول به الكلمة من صورة إلى رمز يلتحق به المعنى عرضاً واتفاقاً ثم ان كلا هذين التطورين انتهى به الامر إلى نتائج خطيرة في ثقافة اصحابه، الساميين والاريين، وإلى هذا الاختلاف يرجع التباين والتمايز في البنيان بين الذهنية العربية السامية وبين الذهنية اليونانية الاوربية فقد تحولت الاولى إلى ثقافة ذات طابع رحماني، بينما تحولت الثانية إلى ثقافة ذات طابع نسبي.١٥

لقد امن الارسوزي بان العبقرية التي انطوت عليها نفوس العرب قد تجلت في بيانهم ولغتهم وانسجم بنائهم الثقافي مع الميول التي تضمنتها أنفسهم فالحدس ينعدم على الصورة الحسية، والمفاهيم العامة التي تحاول التعبير عن اتجاهاتها الاساسية فالأمة العربية عبقرية أبدعت بيانها فأفصحت بهذا الابداع عن حقيقتها، وتوحي الكلمات العربية بحقيقة الامة كما يوحي انسجام الالفاظ في القصيدة بالفنان الذي أبدعها، والحدس في الكلمة العربية هو بمثابة البذرة من الشجرة والخيال يقوم في استجلاء الحدس مقام البيئة في انماء البذرة، مما يحمل على الاعتقاد بان هذه الامة ليست كغيرها محصلة ظروف تاريخية أو جملة من الذكريات بل انها معنى مبدع يبدع تجلياته ويوجهها حسب وجهته في الحياة.

لقد أمن الارسوزي بأن المجد القومي عند العرب مدين به للإسلام إذ جمعت الدولة التي شيدها الرسول الاكرم صلوات الله وسلامه عليه و اله شمل العرب وطهرت بلدانهم من كل دخيل ومعتدٍ ونهل الناس بالإسلام من ثقافة واحدة وهي الثقافة المتبلورة معانيها في كلمات اللغة العربية وأنتقل العرب في تلك الحقبة من بطولة فرد في الجاهلية إلى بطولة امة شعارها الجهاد، وإذ تردى حال العرب

في الحقب التي تلت الانبعاث الاسلامي في عصر الرسالة وما تلاها حتى أمست ارض العرب نهباً لمطامع الدول الاستعمارية فقد أشار الارسوزي إلى جملة من الاليات التي يمكنهم عن طريقها تلافي حالة التخلف والانحطاط التي يعيشونها وذلك عن طريق العلم والصناعة ودراسة العبقرية العربية في أبرز تجلياتها الا وهو لسانها وهو ما سوف ندرسه في المبحث الثاني.

اللغة العربية ومدلولاتها عند زكي الارسوزي

لم يكن بدعا أن يقوم الارسوزي بالتأكيد على ضرورة الاهتمام باللغة العربية والبحث في مدلولات كلماتها واشتقاقاتها، لما وجد أن واحدا من أخطر الاساليب التي اتبعها المستعمر الغربي قد قامت على تجزئة الوطن العربي واثارة النعرات الطائفية ومحاربة اللغة العربية وهي لغة الاباء والاجداد بإشاعة اللغات العامية وتعميم لغة المحتل، وعد اللغة عنوانا اساسيا للهوية العربية وبدونها تفقد هذه الهوية أهم مقومات وجودها.

لقد ادرك الارسوزي إن اللسان العربي هو الذي يضمن بقاء الامة، بسماحه بانكشاف الحقيقة الانسانية انكشافاً دائما يتجاوب بين قطبيها المحسوس والمعقول، فبمجرد استيقاظ المعاني المشتقة من ذات المصدر، يتجلى الحدس في المصدر ويتحول إلى اية لذي البصيرة.١٦واللسان أنشأته الحياة ، فانتصرت به على الزمان والمكان، ولخصت تجارب أجيالها، ولقد اختارت الحياة من بين تجلياتها الحسية، الصوت، وهو طوع ارادتها، و وسيلة للكشف عن ماهيتها، بخلق ذاتها ابداً.١٧

ربط الارسوزي بين اللغة العربية والحدس والذي تضمن في كافة الكلمات العربية وهي على مثال الشعر تبعث المعاني حية في النفوس وتجمع مقومات الحياة الانسانية، والصبوة الى المثل الاعلى والنزعة إلى ينبوع الحياة إذ ان الصيغ في اللغة العربية وجهات مثالية أدركها العقل فاستقر عليها. ولم تكن حتى كلمة العرب سوى تجلياً اخر لأصالة الهوية العربية ف عَرب أو أعرب تعني الافصاح والإبانة فأعرب المرء عن نفسه أفصح وأبانَ وكلمة عرب استحدثت من عرَ بمعنى صات (عَرَ الظبي –صات) وهذا يعني إن اسلاف العرب قد اختاروا اسمهم من الصفات التي يتميز بها الانسان عن الاحياء الاخرى الا وهي النطق.

واللغة العربية مستودعُ للتراث وأبلغ مظهرٍ لتجلي عبقرية الامة وحتى يكون للامة سبيل احياء ونهضة وجب على العرب أن يعودوا للغتهم ويعيشوها عن وعي، وهذا الاحياء يكون في الارتقاء من الكلام إلى الينبوع وكلمات اللسان العربي ترجع إلى صورٍ صوتية ومرئية مقتبسة مباشرة عن الطبيعة الخارجية تقليداً للأصوات الحاصلة فيها أو مشتقة مباشرة عن الطبيعة الانسانية، بياناً لمشاعرها.١٨

امن الارسوزي ان هنالك عبقرية انطوى عليها اللسان العربي وهذه العبقرية كانت بمثابة احساس فطري عبر كل فرد من افراد الامة به عن وجهة نظره الخاصة واستمدوا نسغها منهم واليها يصبون كمثل أعلى وبها تنسجم ثقافتهم مع الميول التي تتضمنها نفوسهم، أي ان اللسان العربي جاء تعبيراً عن المدلولات النفسية والمشاعر التي أحس ويحس بها الفرد العربي عبر تاريخه، ولقد امتازت اللغة العربية حيناً بتقديم الحدس على الحس والمفاهيم العامة التي تحاول التعبير عن اتجاهاتها الاساسية كتقدم الميل على الاشياء فيحدد انتباه الفرد ويوجه اختياراته وحيناً يتقدم الحس على الحدس فيحصل من تجاوبها تفتح الصورة إلى مشتقات صوتية اي كلمات مشيرة الى خيال مرئي وتفرع المعنى في اتجاهات ملائمة لطبيعة المراحل التاريخية التي تحققت فيها العبقرية العربية.

عَدَ الارسوزي الكلمة العربية مؤلفة من صورة وهذه الصورة تتضمن صيرورة من تحولات الاحساسات الصوتية ومن وضع قوام تألف هذه الاحساسات، وهذه الصورة سمة المعنى الملقاة على المكان فتكشف عنها اجزائها وبمنظوماتها وهي تساعد باتجاهات نموها على دعوة المعنى إلى التحقق فالازدهار. فتصبح الكلمة العربية بذلك ذات نزعة حركية و وظيفية، مثلها كمثل الخلية، فكما ان الخلية تنطوي على الحياة وتعبر باتجاهات منحنيات نموها، عن وجهة نظر الكائن الحي في الوجود وثبت هذه النظرة فيها كي تستدعي النسغ فيجري في هذه المنحنيات، وان منظومة اللسان العربي الناتجة عن تلازم وانسجام في الكلام والنحو والنغم، وهذه تكون بمثابة سطوح منحدرة تتجلى بها فكرة الامة، فتوفر على الاجيال جهود الاجداد المنصرمة في انشائها حتى ان الفرد يستأنف بناء هويته مضيفاً اليها ابداعاته وهذا ما يميز العقلية العربية.١٩

عَدَ الارسوزي اللسان العربي حيوياً نسبة إلى الحياة وبيانياً أي ان الصورة الذهنية فيه تجمل الفكرة بكافة

عناصرها، فالصورة الصوتية المعبرة عن هذه الصورة الذهنية تحتوي على أجزائها متداخلة، مما أدى إلى تداخل الافعال المتقاربة في المعنى والصوت فتشكل عن هذا التداخل افعال رباعية مثل دحرج، من دَحرَ ودرج، وزحلف من زحل وزحفَ.

كذلك يستقطب الذهن العربي بعض الحروف الدالة على أسس تركيب الجملة فيدخل اليها الفعالية ويُكون منها افعالاً رباعية مثل: بسمل من بسم الله، وحمدل من الحمد لله، وحوقل من لا حولَ ولا قوة إلا بالله.

ويشكل الذهن العربي ايضاً افعالاً رباعية بإبدال احد الحروف الاضافية إلى الافعال المشتقة، فيحولها إلى رباعية: فمن أراق :هراق ومن أنار هنار، ومن آت هات.

وبالنسبة لتصريف الافعال من ماضٍ لمضارع وفعل امرٌ فقد استقر في الذهن العربي ان الماضي مبني مبدئياً على الفتح (عبارة الركون أو فقدان الفعالية)، والمضارع يُعرب بضم اخره (عبارة الفعالية المتواصلة)، واما الامر فهو من المضارع فانه يبنى على الجزم تحديداً لهذه الفعالية.٢٠

على ان المنهج الذي يسير عليه اللسان العربي في نموه بإلحاقه للحروف أو دمجها في صلب الكلمة معبراً بذلك عن المعنى المتفرع في أصل الصورة الذهنية يبدو في الاشتقاقات اللغوية أكثر وضوحاً واضطراداً، بحيث ان التحول في الخيال الذهني يظهر ما يقابله طبقاً للذوق العربي في اختياره الحروف الاقرب بياناً عن هذا الخيال. ولما كانت طبيعة كل فعل، بالنظر للمعنى الذي تنطوي عليه متممة للمعنى الاساسي المتعلق بالقاعدة العامة وتتجلى في مدى قابلية الافعال الاشتقاقية المختلفة واتجاهات ثقافة الامة بالنظر إلى وجهة نظرها وضمن المرحلة التي تجتاز حضارتها.٢١

ومبدأ الاشتقاق في اللغة العربية يستند على الصورة الحسية سواء كانت صوتية مرئية أو صوتية مرادية وهي مصدر انبعاث المعنى أيضاً فالكلمة من المعنى الذي أنشأها كالبدن من النفس، أو كالخيال من صورته، تحمل طابعه وتكشف عنه وإذا كانت النفس تتضح بتجاوب تجلياتها مع نمو بدنها، فالمعنى أيضا يتضح باشتقاق الصورة الحسية إلى كلمات بليغة ومتلازمة: ومثل هذا التلازم يكشف عن حدس الامة فيتحول في نفس الفرد إلى بصيرة في بنيان الوجود وبلاغتها تعين قابليتها الفنية فالكلمة العربية في اسرتها كاللحن في الانشودة، ويعين المعنى للنفس الصور المحققة له، فيحدد بذلك اتجاه اشتقاقات الكلمة.٢٢

وبعد أن درس الارسوزي ارتباط اللغة بالطبيعة، وعن طريق ارتباط الصوت بالمعنى وبعد دراسة الكلمات التي أخذها الذهن العربي عن أصوات الهيجان، وأصوات الفم، والاصوات الطبيعية ؛عمم هذه القاعدة على جميع جوانب اللغة العربية وعَدَ البيان الذاتي في الكلمة خاضعاً لإيقاعها الخاص(المداد) والكلمة العربية بحسب الارسوزي بصورتها وما تنطوي عليه هذه الصورة من معنى تعبر عن تجلٍ لبيان الامة وما اللسان العربي إلا منظومة صوتية تتجاوب بها هذه التجليات وهو يعكس صورتها ويتبع مصيرها.٢٣

ويؤمن الأرسوزي وبدون مواربة بأن منشأ اللسان العربي هو الصوت المُقتبس من الطبيعة، وظاهرة الاقتباس هذه تحمل في طياتها سمة الاشتقاق حيث ان اللسان العربي اشتقاقي البنيان وترجع كافة كلماته إلى صور صوتية –مرئية مقتبسة مباشرة من الطبيعة.٢٤

ولقد عَدَ الارسوزي هوية الامة العربية مرتبطة وبشكلٍ كبير في بيانها اللساني من حيث الاجزاء والمقاطع والتي تشكل الصوت في وحدة عضوية والبيان على سبيل المثال والذي لا تخلو منه لغةٌ من اللغات إلا انه يبقى على حدود العبارة في اللغات الحديثة بينما يشمل العبارة والكلمة والحرف في اللسان العربي، وهذا يعني ان اللسان العربي يفيض بالحياة في جملته وفي أجزائه فهو على مثال الاحياء نفسها.٢٥

ولقد اختارت الامة العربية بيئتها طبقاً لغايتها من الوجود واصطفت جملة من الصور الصوتية –المرئية مستندة على تعادل مدادها لتحقق هذه البنية، فحددت بذلك من شطط الخيال الشخصي كما جهزت بدن الفرد بالغرائز فعينت له تعادل حاجاته وأنشأت كافة مؤسساتها (الاخلاق واللغة والفن) على ضوء هذه البنية تحقيقاً لها وبالانسجام مع تلك الغرائز.

أي ان العربي لو بحث في أصل الكلمات التي يستخدمها ويتداولها فسوف يلاحظ ان الكلمة ترتبط بجذور تجمعها مع كلمات اخرى وهذه الجذور ترتبط بالموجات والمراحل التاريخية التي تحقق بها تجليات الكلمة وهذا يعني ان دراسة اللغة سوف تعطي تصوراً كاملاً للتحولات التي طرأت على الكلمة في مسارها والاشتقاقات التي نتجت عن استخدامها.

ويؤمن الارسوزي إن ماهية الاشتقاق

كامنة في أصل النشأة أي المظهر الطبيعي في الظاهرة اللسانية ومنها تقتبس اللغة روح التجلي في اطار الوجود وتحقق ذاتها من حيث كونها ما صدقَ البنية اللسانية وإن اصالة اللغة مستمدة من أصالة المفهوم والذي يكشف عنها الا وهو اللسان العربي واذا ما درس اللسان العربي دراسة توليدية فانه يسجل اية الامة التي أنشأته تعبيراً عن ذاتها فأودعت فيه تجاربها ورسمت بمنحنياته سماتها حتى أصبح منها كالجسد من النفس.٢٦

ولو أخذنا كلمة ذكاء على سبيل المثال لوجدنا إن الكلمة مشتقة من(ذكا) وهي صورة صوتية مرادية تشترك مع أخواتها(صَكَ، ضَك، دَكَ) وتدل على معنى الاحتكاك والدلك بحسب بيان الحرف كاف، والكلمات المعبرة عن تجليات الحدس الحسية وهي (ذَكت النار) اشتد لهيبها، وذَكى النار أوقدها، والذكوة ما يُلقى على النار فتذكى به –الذكاء الجمرة المشتعلة، وذكاء اسم علم للشمس وكل هذه الصور تفيد الشدة والاشتعال والمُذكى من السحاب غزير المطر، وذكى الرجل تقدم في العمر، والمُذكى من الخيل ما تم سنه وكملت قوته، وهذه الصور تفيد الشيخوخة باستكمال شروط النمو.٢٧

ولو أخذنا كلمة اخرى مثل اللذة ونقيضها الالم فسوف نلاحظ الكيفية التي تعاملت بها الذهنية العربية مع هذا المفهوم وبالطريقة التالية فلذة مشتقة من لَذَ لذ الشيء صار شهياً فهو لذيذ وهذه الكلمة تفيد الحالة الحاصلة من الملائمة بين النزعة وغايتها: واتجاه النزعة ويبدو في معاني شقيقاتها لَذ بالمكان :أقام، وهذه النزعة تشتد في الشكل الرباعي فتتحول إلى حركة؛ اللذاذ : السريع والخفيف في عمله، واما اتجاه الغاية ويقتصر على الالذ والاكثر لذة والمُلذ موضع اللذة وذلك بالنسبة إلى النزعة ايضاً.

ولما كان اللسان العربي اشتقاقي البيان بمعنى إن معظم كلماته ترجع إلى صور صوتية مرئية مُقتبسة مباشرة من الطبيعة فقد أختار الذهن العربي على سبيل المثال كلمة فرح في حالة تعبيره عن السعادة وفرح مشتقة من فرَ فرفر وهي الصورة الصوتية الحاصلة عن طيران العصفور لما للحالة التي تُعبر عنها من شبه مع ارتقاء العصفور في الافاق العالية(طارَ من فرحه).ونلاحظ أيضا إن اللسان العربي اشتق من سعى، وساعدَ، وساعي كلمة السعادة والتي تعني تفتح الشخصية بكاملها (الميول التي ينطوي عليها البدن)، والارتقاء نحو قراراتها باستجمام تجلياتها. ولم يكن من المستغرب بعد ذلك أن يدرك الذهن العربي علاقة السعادة بالشقاوة(شَقَ–شقشق) لما للمقاومة التي قد تلقاها فعاليتنا عن تحققها من تأثير على حياتنا.٢٨

وتدل هذه الامثلة على إن الكلمة العربية تُعبر عن العربي صانعها اذ هو يتمتع بقيمة انسانية مطلقة تتكشف بها في نفسه غاية امته من الوجود ويملك بالإضافة اليها قيمة نسبية تشترك في تعيينها اصالته التي تنطوي عليها بنيته والاصالة عند الارسوزي تعني اصالة اللسان العربي والتي تكمن في مظهر التجديد من جهة، وفي منطلق النشأة من جهة اخرى، وحين نصف لساناً بالأصالة نقصد به أن يتوفر فيه عنصران الايغال في القدم من ناحية والاستمرار في الحياة من ناحية أخرى وهو ما يحقق الشرط الاساسي لديمومة الهوية وامتدادها عبر العصور.

الخاتمة والاستنتاجات

تأتي الاهمية التي تمتع بها زكي الارسوزي في الفكر القومي العربي من وجود جملة من الحقائق التي تميزت بها شخصيته ولا سيما في مراحل نشأته الاولى ومن ثم خوضه لتجربة العمل السياسي في مرحلة تاريخية شهدت انتقال العرب من مرحلة تاريخية لأخرى شهدت تخلصهم من ربقة الاحتلال العثماني و وقوعهم بقبضة الاستعمار الغربي، ولقد وجد ان العرب يعيشون على هامش احداث التاريخ فبحث في الاسباب اللازمة لنهضتهم القومية فوجدها في اللغة العربية وسعى لتقديم الادلة العملية على اصالة الامة العربية وعبقرية لسانها وما ابدعته من نظم كانت حصيلة هذه العبقرية اللسانية ولهذا فقد سعى في نشاطه السياسي إلى التنبيه لحقيقة اساسية وجوهرية وهي ان اللسان العربي لسان اصيل كانت نشأته رحمانية سماوية بمعنى ان الكلمات والمصلحات فيه لم تكن وليدة الانتقال المفاجئ أو الطفرة التاريخية ودلل ببراهين علمية على ان اللفظ العربي يرتبط بدلالة صوتية مرتبطة بظاهرة من ظواهر الطبيعة، وأهتم منطلقاً من هذه النظرة بالموروث العربي قبل وبعد الاسلام وان كان اكثر تركيزاً على الموروث الذي سبق الاسلام ايماناً منه بانه العصر الذي شهد تفتح قريحة العرب بالشعر وبداية لتكون كيان العرب القومي، وتابع اصل اللسان العربي واللفظ العربي والذي عده لفظاً

مبدعاً وبدائي واصيل فهو مبدع لآنه انتج لغة كانت بمثابة نسيج لوحدها فريدة ليس لها مثيل بين لغات العالم وهو لسان بدائي بمعنى ان جميع جذور الكلمات العربية ذات أسس في الطبيعة ولم تكن حصيلة تجربة أو طفرة لغوية، واللسان العربي لسان اصيل ايضاً بمعنى انه لسانٌ طبيعي منذ بداية تكونه وحتى الوقت الحاضر، وذلك يشمل الحروف والحركات والكلمات. وكان ابرز ما انتجته قريحة العرب ودليلاً على عبقريتهم والتي تكاملت بالإسلام والذي حافظ على اللغة العربية و وحد المفاهيم و وجهات النظر العامة نحو الحياة.

لقد قام احياء الهوية العربية عند الارسوزي على قاعدة اساسية الا وهي احياء اللسان العربي وتعميم اللغة العربية الفصحى وتعليمها للنشء والتي عدها لغة رحمانية اصيلة، ولم يكن في البراهين التي قدمها لإثبات اصالة اللغة العربية ليعتمد على اراء مجردة تقوم على الحماسة أو الادعاءات التي لا تستند على براهين علمية إذ استدل واستند على الاستدلالات اللغوية وتابع كل كلمة ولفظ ونقب في جذوره والكلمات والالفاظ المترادفة معه.

الهوامش:

١.زكي الارسوزي، المؤلفات الكاملة، المجلد الاول، دمشق، مطابع الادارة السياسية للجيش والقوات المسلحة،١٩٧٢، ص:٥-٦

٢.مجلة المعرفة، عدد خاص عن الارسوزي، دمشق، تموز،١٩٧١،العدد(١١٣) المجلد السادس،ص:٩

٣.زكي الارسوزي، المؤلفات الكاملة، المجلد الاول، مصدر سبق ذكره،ص:٧

٤.سامي الجندي، البعث، بيروت،١٩٧٨،ص:٢٣

٥.سليم ناصر بركات، الفكر القومي وأسسه الفلسفية عند زكي الارسوزي، ط٢، دمشق،١٩٨٤،ص:٧٠-٢١٣

٦. زكي الارسوزي، الاعمال الكاملة، المجلد الثاني، دمشق، مطابع الادارة السياسية للجيش والقوات المسلحة،١٩٧٢،ص:١٤١

٧.نفس المصدر السابق، ص:١٥٦

٨.زكي الارسوزي، الاعمال الكاملة، المجلد الرابع، دمشق، مطابع الادارة السياسية والقوات المسلحة،١٩٧٢،ص:٢١٣

٩.علاء عبد الرزاق، ازمة الهوية في الفكر العربي بين الاصالة والمعاصرة، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد،٢٠٠٠،ص:٧٧، ويُنظر ايضا: زكي الارسوزي، رسالة اللغة والفن، دمشق، دار اليقظة العربية، ١٩٦٤،ص:٨١-٨٥

١٠.نفس المصدر السابق، ص:٧٧ وينظر ايضا، مجموعة باحثين،قراءات في الفكر القومي، القومية العربية والتاريخ والانسانية، زكي الارسوزي، الامة العربية والانسانية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية،١٩٩٤،ص:٢٣٥

١١.القران الكريم آل عمران، الآية(٦٧)

١٢. القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية(٢١٣)

١٣. القرآن الكريم، سورة البقرة الآية(١٤٣)

١٤.زكي الارسوزي، العبقرية العربية في لسانها، دمشق، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر،١٩٦٢،ص:٤-٥

١٥.زكي الارسوزي، الاعمال الكاملة، المجلد الثاني، مصدر سبق ذكره،ص:٤١٢

١٦.زكي الارسوزي، الاعمال الكاملة، المجلد الثالث، دمشق، مطابع الادارة السياسية والقوات المسلحة،١٩٧٢،ص:٢٧٩

١٧.زكي الارسوزي، الاعمال الكاملة، المجلد الاول، مصدر سبق ذكره؛ص:٦٠

١٨. نفس المصدر السابق،ص:٧١

١٩. زكي الارسوزي، العبقرية العربية في لسانها، مصدر سبق ذكره،ص:٥٥-٦١-٦٢

٢٠.نفس المصدر السابق،ص:٦٢

٢١.نفس المصدر السابق،ص:٦٣

٢١. نفس المصدر السابق؛ص:٧١-٧٢

٢٢. نفس المصدر السابق،ص:٧١

٢٣. زكي الارسوزي، الاعمال الكاملة، المجلد الاول، مصدر سبق ذكره؛ ص:١٢٦ وانظر ايضا: فريدة فرحات، مكانة اللغة العربية بين زكي الارسوزي وعثمان أمين، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة، جامعة منتوري، قسنطينة، كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية،٢٠٠٨-٢٠٠٩،ص:٢٣، وينظر أيضا، خليل أحمد، دور اللسان في بناء الانسان عند زكي الارسوزي، دمشق، دار السؤال للطباعة والنشر،ص:١١٨-١١٩

٢٤.زكي الارسوزي، الاعمال الكاملة، مصدر سبق ذكره؛ص:٧١

٢٥. زكي الارسوزي، الاعمال الكاملة، المجلد الثاني، مصدر سبق ذكره،ص:١٥٥

٢٦.زكي الارسوزي، الاعمال الكاملة ، مصدر سبق ذكره،ص:٣٠٠

٢٧.زكي الارسوزي، العبقرية العربية في لسانها، مصدر سبق ذكره،ص:٧٢

٢٨.زكي الارسوزي، نفس المصدر السابق،ص:٨٢